كتابات الرحالة والمبعوثين عن منطقة الخليج عبر العصور

عرض وتحليل أ.د. أحمد زكريا الشلق
كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية
قسم التاريخ - جامعة قطر

الكتاب عبارة عن محاضرات وأبحاث الندوة التي شارك في إعدادها مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث في دبي ، بالتعاون مع جامعة الإمارات العربية المتحدة بالعين ، والمجمع الثقافي في أبو ظبي ، والتي عقدت خلال الفترة (٢٠ - ٢٢ ذو القعدة ١٤١٦هـ الموافق ٨ - ١٠ ابريل ١٩٩٦م) وقد صدرت عن المركز في عام ١٩٩٧م في كتاب يقع في ٤٥٨ صفحة وقد جمعت الندوة باحثين متخصصين من أنحاء العالم ، من العرب وغيرهم ، وقد أعدها للنشر وقدمها الدكتور عبيد علي بن بطي ، ونشرت ١٩٩٧ عن مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث في دبي بدولة الإمارات العربية المتحدة .

وقد ضم الكتاب - الندوة في **محوره الأول** ، والذي يتناول مرحلة العصور الإسلامية حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي ، ضم ثلاثة أبحاث ، قدم أولها الأستاذ دنيزيوس البرتوس إيكيوس ، الكندي ، وهو متخصص في فلسفة اللغة العربية وآدابها ، وقد تناول موضوعه عرضاً لأعمال الرحالة والجغرافيين العرب والمسلمين وكيف صورت الوضع الاقتصادي والاجتماعي للخليج ، حيث تناول بحثه تقويماً لتلك الأعمال ومحاولة للإجابة على السؤال : إلى أي مدى يمكن أن تُعد المعلومات الواردة بها معلومات موثقة ومعتمدة ؟ كما عالج مسألة الهوية الثقافية كما صورها كتّاب القرون الوسطى ، فضلاً عن دراسة أهمية الطرق التجارية البحرية والنشاط التجاري في الخليج .

وكذلك قدم ، في نفس المحور ، الدكتور حمد بن صراي من جامعة الإمارات ، بحثاً عن «**منطقة الخليج في رحلة بنيامين التطيلي**» وقد تناول في بحثه ترجمة لحياة بنيامين ورحلته ودراسة ما ورد بها حول مدن الخليج كالبصرة وخوزستان وسوسه والقطيف

وجزيرة قيس ، وما ورد عنها في كتاب بنيامين ، مع مقارنة بما ورد عن نفس المدن في المصادر العربية الإسلامية والكلاسيكية ، بل والمصادر الحديثة والآثار المكتشفة .. وقد أبرز الباحث أهمية هذه الرحلة واهتمامها بالجوانب الاقتصادية والنشاط الاقتصادي لليهود في الأماكن التي مرّ بها ، كما تقدم الرحلة معلومات هامة عن تاريخ التجارة في أوروبا وآسيا وأفريقيا زمن الحروب الصليبية ، وكذلك معلومات عن طوائف الحشاشين في سوريا وفارس .

كما قدم الدكتور عبد الهادي التازي ، الذي شارك من المغرب ، بمقالة موجزة عن «منطقة الخليج بين ابن بطوطة وماركو بولو» قدم فيها مقارنة بين الرحالتين الكبيرين ، وإن لم يركز بشأن الخليج إلاّ على ما أورده ماركو بولو عن «قلهات» مقارناً إياه بما كتبه ابن بطوطة .

أما **المحور الثاني** فتناول الخليج في مرحلة السيطرة البرتغالية ، وقدم فيه الدكتور عصام سخنيني ، وهو من الأردن ، بحثاً عنوانه **«شهادات على التقدم والازدهار»** قدم فيه صوراً مما ذكره الرحالة عن سواحل شبه الجزيرة العربية ، بدءاً من جدة وحتى باب المندب ، ثم على طول سواحل خليج عدن وحتى خليج عُمان ورأس مسندم ، وعبوراً حتى مضيق هرمز ، وانتهاءً بالبصرة ، وقد اعتمد الكاتب على مصادر برتغالية أربعة رئيسية هي كتاب دوارتي باربوسا ، وكتاب الفونسو البوكيرك ، ومذكرات تومي بيرس ، ثم كتاب الرحالة الإيطالي فارثما .. وتكمن أهمية هذه الدراسة في توفيرها قدراً هاماً من المعلومات المتصلة بالاقتصاد والتجارة، ويبدي ملاحظة موثقة مؤداها أن الوجود البرتغالي كان يتركز على الساحل وأنه لم يتغلغل قط في الداخل العربي .

وفي نفس المحور قدم الدكتور محمد رزوق - وهو من المغرب - بحثاً عن **الأثار الاجتماعية والاقتصادية للوجود البرتغالي في الخليج خلال الربع الأول من القرن السادس عشر** ، وبدأ دراسته من زاوية إعتبار الغزو البرتغالي امتداداً للحملات الصليبية ، وقدم خلفية عن الأوضاع السياسية بالخليج العربي إبان الغزو البرتغالي ، ثم عمليات الغزو ، والمقاومة خاصة في مسقط والبحرين ، مع تحليل لنظام الاستعماري البرتغالي وأهم مظاهره ، مستخلصاً نتيجة مؤداها أن تأثير البرتغاليين في منطقة الخليج

كان ثانوياً ،وأنهم رغم تأسيس القلاع والحصون إلاّ أنهم لم يكن لهم تأثير مهم في المجالات السياسية أو الاقتصادية والاجتماعية .

والمحور الثالث الذي تناول كتابات الرحالة والمبعوثين خلال مرحلة التنافس الأوربي (١٦٥٠ - ١٨٠٠) فقد عولج في بحثين أولهما للدكتور كالڤن من جامعة ميمفيز ، وقدم فيه عرضاً لأعمال الرحالة والمبعوثين الأوروبيين ووصفهم للبيئة الاقتصادية والاجتماعية في المنطقة ، وتكمن أهمية هذا البحث في معالجته لأوضاع التجارة في بندر عباس والبصرة والبحرين والكويت ، فضلاً عن رسمه صورة للمجتمع الخليجي ونشاطه الاقتصادي في زراعة النخيل وصيد الأسماك واستخراج وتجارة اللؤلؤ ، وما حظيت به تربية الجياد والصقور من اهتمام الرحالة الأوروبيين ، فضلاً عن الإشارة إلى الفئات الدينية التي لعبت دوراً وإن كانت أقليات منها البانيان ، وبعض الفئات المسيحية خاصة في البصرة ، ثم الطائفة اليهودية ونشاطها في البصرة أيضاً ، رغم ندرة المعلومات ، مما يفتح مجالاً أخصب للبحث حول دور ونشاط هذه الفئات .

وثانيهما بحث الدكتور ب . ج . سلوت ، من جامعة ليدن ، والمؤرخ المعروف صاحب كتاب «**عرب الخليج**» الذي صدر بالإنجليزية والعربية عن المجمع الثقافي في أبوظبي (١٩٩٣) وعنوانه «**مرحلة التنافس الأوروبي بين عامي ١٦٠٠ و ١٨٠٠ ونظرة المبعوثين الأوروبيين إلى القوى العربية**» وتناول فيه دراسة المصادر الأوروبية المختلفة لتاريخ عرب الخليج والصورة التي قدمها الأوربيون للخليج والأحداث التي شهدها ، سواء كانت ملاحظات مكتوبة أو خرائط ورسوماً ، أو تقارير المسئولين الأوربيين المقيمين ومنهم مسئولو الشركات والقناصل والمبشرون الكاثوليك ، ويمضي الباحث معها جميعاً مبتدئاً بالمصادر البرتغالية ثم البريطانية ، فالهولندية ، فالفرنسية ، ثم مصادر الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، ويقدم الباحث كذلك دراسة للواقع الاقتصادي لقدوم الأوربيين للمنطقة ، وتتبع الاتصالات التي تمت بين الأوربيين والعرب خلال فترة الوجود البرتغالي وفي أعقابه ، خاصة في الفترة (١٦٥٠ - ١٦٩٥) ، مع معالجة للصراع العُماني - الفارسي فيما بعد ، ثم الحرب الأهلية في عُمان (١٧٢١ - ١٧٤٧) ، وغو القوى العربية فيما أسماه بمرحلة السيطرة القبلية بعد عام ١٩٤٧ ، في جلفار وعُمان ، وما ورد عن ذلك كله في كتابات الرحالة المبعوثين الأوربيين .

أما **المحور الرابع** فيتناول «**مرحلة الانفراد البريطاني ١٨٠٠ - ١٩١٨**»، وقدم فيه بحثان أولهما للدكتور فؤاد شعبان، من سوريا، وعنوانه «**أعمال الرحالة والمبشرين في العالم العربي ١٨٠٠ - ١٩١٥، تحليل وصفي**» تتبع فيه مفهوم الغربيين عن الرحيل إلى الشرق، ثم تناول الطبيعة الأيديولوجية للتبشير وأهدافها وأهم المبشرين وأعمالهم، وما قدموه من طروحات دينية وعلمانية، والصورة السائدة في كتاباتهم عن «**العربي والمسلم**»، وثاني البحثين وضعته الدكتورة فراوكه هيردبي، من جامعة برلين، وقد تناول «التحديات الواقعة والمتخيلة لوضع بريطانيا في الخليج» وهي تعمل في مركز الوثائق والبحوث في أبوظبي ولها كتابان هامان أولهما عن دولة الإمارات والآخر عن مجلس التعاون الخليجي، وفي دراستها الحالية عالجت التنافس البريطاني - الألماني في المنطقة، وألقت الضوء على جهود الرحالة الدبلوماسي فون أوبنهايم وكتاباته الغنية عن الخليج والجزيرة والتي لم تخضع للدراسة العلمية بدرجة كافية باعتبارها مصدراً هاماً، وكذلك وليم فاسموس، الدبلوماسي الألماني في إيران خلال فترة الحرب الأولى وما خلفه من وثائق وتقارير تكشف عن الصراع الألماني - البريطاني في المنطقة.

أما **المحور الخامس** الذي تناول مرحلة البحث عن النفط، فقد قدمت فيه الدكتور فاطمة الصايغ، من جامعة الامارات، بحثاً عن «**الساحل المتصالح في كتابات المنصرين**» وركزت مصادرها، ليس على الوثائق البريطانية كما هو الوضع التقليدي، وإنما ركزت على وثائق الارساليات الأمريكية وما حوته من مادة علمية ثرية تتعلق بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي للمنطقة، وقد استعرضت في بحثها خلفية تاريخية لطبيعة عمل الإرسالية العربية الأمريكية التي تبنت نشاط المبشرين في الإمارات في النصف الأول من القرن العشرين، ثم انتقلت الباحثة إلى دراسة أوضاع الامارات كما وردت في كتاباتهم حتى بداية الحرب الأولى، درست بعدها أوضاع المبشرين ونشاطهم خلال فترة ما بين الحربين، ثم دراسة أهداف المبشرين ونشاطاتهم خلال الأربعينيات، وقدمت في النهاية خاتمة رصدت فيها أهم النتائج التي حققها المبشرون في الإمارات وتأثيرهم عليها.

وخلال نفس المحور ، قدم الدكتور حسام مهدي ، وهو مصري يحمل جنسية بريطانية، «**تعليلاً للمصالح النفطية وأعمال الرحالين الغربيين**» ألقى فيه الضوء على سجلات رجال النفط وقيمتها ، وتتبع فيه الباحث طبيعة المصالح النفطية في الخليج وأهميتها الكبرى ، ولماذا وكيف تابع الغرب مصالحه النفطية في الخليج ، ونطاق هذه المصالح ، بدءاً بفارس والعراق ، ثم الكويت والمملكة العربية السعودية، فالساحل المتصالح أو دولة الإمارات ، ثم البحرين وعُمان وقطر .. وقد عالج الباحث كذلك الأشكال المختلفة لكتابات رجال النفط عن الخليج وأهم خصائصها .

أما **المحور السادس** والأخير فقد تناول تقويماً لكتابات الرحالة والمبعوثين واستخلاص نتائجها ، وقد تضمن ثلاثة أبحاث أولها قدمه الأستاذ ايكلمان - من جامعة دارموث الأمريكية - وعنوانه «**كتابات الرحالة الغربيين عن المجتمعات الإسلامية والخليج العربي ، محاولة في التقويم**» تناول فيه الخليج العربي في إطار الرحلة والخيال الاجتماعي لبوركهارت ولوريمر ، وبعثات بيرد إلى البوريمي والظاهرة من قِبَل شركات النفط ، وكذلك رحلة هندرسن وأهمية المعلومات الواردة بها . وثانيها قدمه الدكتور حسين فهيم ، وهو مصري يعمل أستاذاً بجامعة الإمارات ، وعنوانه «**كتابات الرحالة الحديثة عن الخليج**» ويقصد بالرحالة هنا الصحافيون والضيوف الذين جاءوا إلى المنطقة منذ أوائل السبعينيات ، وهم ليسوا مكتشفين أو رحالة بالمعنى المألوف في الماضي ، وقد استعرض الكاتب ملاحظات جوناثان رابان عن شبه الجزيرة العربية ، وكتابات ثيسجر ودونالد هاولي وكتابات بابس رول وساندرا ماكي عن المملكة العربية السعودية ، وديفيد لام وكتاباته عن الخليج ، ويبرز الكاتب ما تلقيه كتابات الرحالة الأوربيين في السبعينات والثمانينات من أضواء على قضية التغير والمستقبل وما ورد بشأنها في كتابات هيلجا جراهام وديفيد لام ومولي ازارد ، وأثر انتقال الثقافة الحديثة على تغير المجتمع الخليجي ، مع رصد وتسجيل الخلافات بين ثقافة ذلك المجتمع وثقافة «الآخر» .

أما ثالث أبحاث هذا المحور فقد قدمه السفير جوليان ووكر الذي كان على دراية واسعة بالمنطقة منذ عمله مساعداً للمعتمد البريطاني في الساحل المهادن (دولة الإمارات)

٥٣ - ١٩٥٥ ومعتمداً بريطانياً وقنصلاً في دبي ٧١ - ١٩٧٢ وقيامه بدور الوساطة لرسم الحدود بين دولة الإمارات وسلطنة عُمان ، وكان موضوع الدراسة عن «**البحث عن النفط ١٨ - ١٩٦٠ ، نظرة جديدة إلى جوانب واقع المنطقة**» والواقع أنها ليست نظرة جديدة بقدر ماهي عرض لأسس السياسة البريطانية ومتغيراتها في الإمارات العربية بين عامي ١٩٦٦ و ١٩٧١ ، ركز فيها ووكر على دور بريطانيا في تدعيم الحكام وتخلي بريطانيا عن سياستها التقليدية القائمة على عدم التدخل في الشئون الداخلية ، واعتماد تأسيس طريق جوي لبريطانيا إلى الهند عبر الخليج ، واحتمالات العثور على النفط منذ عام ١٩٣٥ ، والامتيازات النفطية ، واتصالها بالشئون الداخلية للمشيخات وسلطة الحكام على القبائل ، وسياسة بريطانيا «لمعاونة المنطقة غذائياً» في سنوات الحرب الثانية وأثر ذلك في تقبل الوجود البريطاني ، وتأسيس قاعدة لسلاح الطيران البريطاني في الشارقة وإتاحة فرص عمل لأبناء المنطقة ، وتدخل المعتمد السياسي البريطاني للفصل في نزاعات الحدود منذ عام ١٩٥٤ ودور المحاضر نفسه آنذاك باعتباره مساعد المعتمد البريطاني ، وكلها معلومات قيمة ، وإن كانت تجلو الأحداث بما يتوافق مع السياسة البريطانية وتعبر عن وجهة نظر تحتاج إلى كثير من المراجعة والنقد .